# الفصل الرابع

## حال الفناء والمعرفة

obeikandl.com

obeikandl.com

# علاقة الفناء بالمعرفة

**تمهيد :**

لا شك أن هناك تلازمًا بين حال الفناء والمعرفة ، وهو تلازم اتضح لنا فى الفصل الأول ، وكذلك فى الفصل الثانى ، ففى الفصل الأول حفلت تعريفات الفناء بجانب معرفى لا غموض فيه ، وكانت لحظة الفناء كما جاء فى الفصل الثانى ملازمة للحظة كشفية ، تسقط فيها كل حجب الذات ، فتحظى القلوب المتطهرة الصافية بفيض من المعارف الإشراقية الربانية .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل عن المدى الذى تصل إليه المعرفة فى ارتباطها بحال الفناء ، أو الخصائص التى تجعل من الفناء حالاً معرفيا ؟ .

وللإجابة على هذا السؤال نقول : إن الفصل بين المعرفة والفناء بالغ الصعوبة ، بل إن التلازم فيما بينهما واضح كل الوضوح ، ولا يدانيه فى وضوحه إلا ارتباط حال الفناء بالبقاء .

فالمعرفة تقع على نهاية سلم طويل ، الطريق إليه مجاهدة وارتقاء درجاته مرتبط بالتطهر والتصفية والانقطاع عما سوى الحق ، فلا يعود الصوفى مشاهدًا فى الوجود إلا حقيقة واحدة ، ويصير ذاهلا عن ذاته مغيبًا عن كل ما يحيط به ، فقد اختطه الحق منه وإن شاء رده إليه فكان عن نفسه فانيًا وبالحق باقيًا – وفى البقاء معرفة والمعرفة أشرف المعارف وأسماها ، أو ليست معرفته جل شأنه ، أنها معرفة لا تتأتى إلا للذين تجردوا عن الحول والقوة ، ووافقوا الله فى أفعالهم ، وحركاتهم ، ولم يفتروا عن ذكره لحظة واحدة .

سئل أبو الحسن الصائغ الدينورى ما المعرفة « فقال رؤية المنة فى كل الأحوال ، والعجز عن أداء شكر النعم من كل الوجوه ، والتبرى من الحول والقوة فى كل شىء »[1] .

---

(١) طبقات الصوفية ص ٣١٥ .

وقيل للكنانى « من العارف ؟ فقال من يوافق معروفه فى أوامره ولا يخالفه فى شىء من أحواله ويتحبب إليه بمحبة أوليائه ولا يفتر عن ذكره طرفة عين »[1] .

هذا وقد اتضح لنا فى الفصل الثالث أن هذا النوع من المعرفة هو صفة ضرورية للعرفاء على الحقيقة ، أولئك الذين ما ترددوا لحظة واحدة فى تجنب أخلاقهم الدنيئة ، بل وأعلنوا الحرب الضروس على ما يشين النفس ويعكر صفاءها ، وتمردوا على كل آفة من آفاتها ، فامتثلوا للأوامر الإلهية التابعة من صميم قلوبهم فكان من نصيبهم القربى ، وهكذا تكون معرفتهم « صفة من عرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله فى معاملاته ، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدق الله فى جميع أحواله وانقطع عن هواجس نفسه »[2] .

يقول الحلاج :

كذا اجتبانى وأدنانى وشرفنى ... والكل بالكل أوصانى وعرفنى
لم يبق فى القلب والأحشاء جار ... إلا وأعرفه فيها ويعرفنى حة

ويقول :

خاطبنى الحق من جنانى ... فكان علمى على لسانى
قربنى منه بعد بعد ... وخصنى الله واصطفانى[3]

وهكذا تتجه كل جارحة من جوارح الصوفى إلى معرفة الله بعد الفناء فيه والقرب منه بمحض الاصطفاء والاختصاص .

أو ليس هذا فناء ؟ بل فناء الفناء ؟ إنه البقاء فى الله وبالله .

هنا تقرر أن المعرفة « بقاء » – وما دام الأمر كذلك – فإن الفرق بين الفناء والبقاء ، هو تماما كالفرق بين الفناء والمعرفة ، أو بين الفانى والعارف . فالفانى مأخوذ بسطوة الربوبية وعظمة الألوهية يكاد لشدة استغراقه فى مشاهداته الإلهية لا يرى الأشياء كلها

(١) طبقات الصوفية ص ٣٧٤ .
(٢) الرسالة القشيرية ص ١٥٤ .
(٣) أخبار الحلاج مطبعة الجندى ، القاهرة ١٩٧٠ م ص ١٤٠ .

« إلا مع الواحد » أو هى لا تقوم بالواحد الحق . وليس الفانى مستقر فهو دائم الانتقال من حال إلى حال أعلى منها ولن يستقر حاله إلا بالوصول – والوصول مقترن بالبقاء ، والبقاء هو مقام الرسوخ والتمكين ومن هنا يمكن أن نقول إن الفانى فى مرتبة أدنى من العارف وأن البقاء طريق إلى المعرفة .

« والفرق بين الفانى والعارف أن العارف يثبت الأشياء بالله والفانى لا يثبت شيئا سوى الله .

والعارف يقرر القدرة ، والحكمة ، والفانى لا يرى إلا القدرة . والعارف يرى الحق فى الخلق .. والفانى لا يرى إلا الحق ، والعارف فى مقام البقاء والفانى مجذوب فى مقام الفناء ، الفانى سائر والعارف متمكن واصل »[1] .

وإلى جانب كون المعرفة لحظة كشفية لا تتم إلا فى حال الفناء فهى لحظة نورانية ، أو هى إن شئت نور يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن . وهذا النور يقوم بعمل الحاسة المستشعرة التى لا تخطئ مطلقًا حيث تميز بين الحق والباطل ، وتفصل هذا عن ذاك فيتمكن العارفون على الحقيقة من متابعة الحق ، ونبذ الباطل يقول « إبراهيم بن أدهم » المعرفة .. ذلك النور الذى أورثه الله قلب عبده المؤمن ، أو هو سراج يكون فى القلب يفرق بين الحق والباطل بين الناسخ والمتشابه »[2] .

ويشترط لكى يحظى السالك بمثل هذا النور المقدس أن يحظى ببصيرة نافذة ، لها القدرة وحدها على أن تبصر هذا النور ، فههنا مجال لا يدخله البصر ولا تلعب فيه الحواس العادية دورا على الإطلاق .

والبصيرة ، وحدها هى القادرة على تلقى البوارق والخطفات النورانية التى تحصل للعارف على الطريق إلى ذلك النور الأعظم الذى يفض الحجب ، ويكشف الأسرار ، وتحصل معه معرفة سامية ، أخص ما يميزها كونها وهبية ، تنزل إلى قلب العبد لا بإرادته هو بل بإرادة الله وإيثاره له على غيره من بنى البشر ، وهذا ما يقصده الفراء حين يقول « من لم يؤثره الله على كل شىء لم يصل إلى قلبه نور المعرفة »[3] .

---

(١) إيقاظ الهمم : ابن عجيبة ص ٢٩٦ .
(٢) طبقات الصوفية ، السلمى ص ٣٢ .
(٣) طبقات الصوفية ص ٥٠٧ .

ويقول الهجويرى فى كشف المحجوب : وأهم الأشياء للعبد فى جميع الأوقات ، والأحوال معرفة الله جل جلاله – ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ « أى ليعرفون » – فكثير من الخلق معرض عن هذا سوى من اصطفاهم الله وخلصهم من ظلمات الدنيا وأحيا قلوبهم به لقوله تعالى ﴿وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس﴾ – يعنى عمر – ﴿كمن مثله فى الظلمات﴾ يعنى أبو جهل فالمعرفة حياة القلب بالحق وإعراض السر عما سوى الحق وقيمة كل امرئ بمعرفته »[1] .

ويقول الشيخ محمد عبده موضحًا طبيعة ذلك النور وكيفية الوصول إليه « ثم لا تزال تظهر تلك الأنوار الشريفة بالمجاهدات والمسارعة فيها وإليها حتى يسطع نور أعظم يكشف عن الحواجز التى تحول دون الناس ودون الوصول إلى هذه العلوم الوهبية »[2] .

وهكذا يمكن القول إن عناصر المعرفة الفنائية متضمنة إلى جانب البصيرة ، والكشف ، طبيعة وهبية لا تنازع ولا يتحقق هذا أو ذاك لا على طريق من التصفية ، الذى يعد وسيلة العارف لقطع الصلة بينه وبين الخلق ، فإذا ما بلغ العبد مقام المعرفة متحليا بروحانياته ، متخليا عن مادياته ، وشهواته ، بعد أن أطال الرياضة ، والعبادة ، واستغرق فى الذكر كان الله كفيلاً بحراسة سره ، فلا يسمح لأى خاطر من الخواطر أن يخطر به ، غير خاطر الحق فهو الخاطر – الوحيد المسموح به ههنا ، فلا شىء يدخل قلب العبد مطلقًا سوى الحق منذ اللحظة التى يفنى فيها العارف بمعروفه ويفسر لنا الهجويرى حديث النبى ﷺ « من عرف نفسه فقد عرف ربه – بأن كل من عرف نفسه عرف الله بالبقاء – ومن الفناء يبطل العقل والصفة وحين لا يكون عين الشىء معقولا فإنه لا يمكن فى معرفته غير التحير »[3] .

ويبدو أن هناك تشابها بين الفناء من حيث صلته بالمعرفة ، فى التصوف الإسلامى ، وما يقابل ذلك فى التصوف اليهودى ، وكذلك فى التصوف المسيحى فيصف لنا Philo Of Alexandria إلهامه بقوله « وأحيانا وعندما كنت أدخل عملى خاويا Empty أحس فجأة أننى قد امتلأت ، أو أصبحت ملاء بالأفكار التى تلقى على بطريقة غير منظورة ، وأنها

(١) كشف المحجوب ، ص جـ ٢ ص ٥٠٩ .
(٢) رسالة التوحيد ، الشيخ محمد عبده ، مكتبة القاهرة الطبعة ١٧ لسنة ١٩٦٠ ص ٩٢ .
(٣) كشف المحجوب ، جـ ٢ ص ٥١٠ .

تغرس فى قادمة من الأعالى وأصبح مأخوذًا بتأثير هذا الإلهام المقدس ، فلا أعرف المكان الذى كنت فيه ولا الناس الذين كانوا حاضرين ، بل لا أعرف نفسى ولا ما كنت أقول أو أكتب ثم أصبح واعيا بثراء الشف أو مستمتعا بنور البصيرة التى هى أشد أنواع البصائر نفاذا .. Most Pentrating Insight[1] .

وتقول القديسة "TERESA" وهى تصف فيض المعارف الإلهية الذى لا يتأتى للعابد المتأمل إلا فى حال الفناء « إن الروح تكون يقظة تمامًا فى حضرة الله ، ولكنها تكون نائمة كلية فيما يتعلق بأشياء هذا العالم ، وفيما يتعلق بنفسها ، وهى تسلب كل إحساس لها أثناء هذه اللحظة »[2] .

القديسة "TERESA" تعلن أنه فى هذه اللحظة فقد أتيح لها أن تفهم وتعى كيف ترى الأشياء كلها فى الله »[1] . كما يحدثنا القديس INGNATIUS عن تجربته الكشفية فيقول إنه تعلم فى ساعة واحدة ما لا يمكن أن يعلمه له كل أساتذة الأرض أجمعين – وأنه عندما اتحد بالله أمكنه أن يرى ويفهم الحكمة المقدسة فى سر الخلق »[3] .

ونحن نفهم من هذه المقالات أن هناك تشابها بين عناصر هذه الخبرة الروحية فى التصوف فى الديانات الثلاث إلا أن خبرة الفناء أو الكشف أو المعرفة الفنائية فى التصوف الإسلامى لها من الخصائص الروحية الخاصة ما يضعها فى مرتبة أسمى . ولسوف نناقش هذه الخصائص فيما يلى :

### ١ – خصائص المعرفة حال الفناء :

تمتاز هذه المعرفة بكونها ذا طابع متعال على الحواس فهى مقام يتجلى فيه الحق على أصفيائه فلا يمكن أن يصمد بشر أمام تجليه فهذا موقف قد دكت له الجبال وصعق له موسى النبى يقول السراج « ذلك لأن حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق ولا ذرة منها لأن الكون بما فيه يتلاشى عند ذرة من أول باد من بوادى سطوات عظمته »[4] .

ومن هنا جاءت صفة الخرس أو الصمت ، وهو الحال الذى غالبًا ما يلازم هذه

---

(١) The Varieties Of Religious Experience; p. 481.

(٢) The Varieties Of Religious Experience; p. 411.

(٣) The Varieties Of Religious Experience; p. 410.

(٤) اللمع ، ص ٥٦ .

اللحظة ، فمن أراد أن تكتب النجاة فليصمت ، ولم لا يصمت والكلمات هنا وسيلة صادقة للتعبير عن حقائق ومشاهدات ربانية .

قال الواسطى « من عرف الله تعالى انقطع بل خرس وانقمع »[1] .

ولحظة الكشف العرفانى هى تلك اللحظة التى أوحى الله فيها إلى أنبيائه أن يصمتوا – فلا تصريح هنا بالكلام فالكلام من عالم الخلق وأما المعارف فلمن لدن الحق وليس فى طاقة خلق مهما كان أن يحيط بعلم الحق وهو المعنى الذى عبر عنه النبى ﷺ بقوله : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فطالما كان النبى ﷺ فى غيبته كان لسانه أفصح لسان عرفه العرب جميعًا – ولا عجب ألا يتكلم بلسان الله – وعندما حمل من الغيبة إلى الحضرة – أى من الفناء إلى البقاء قال لا قدرة للسانى على كمال الفناء عليك فماذا أقول وقد صرت بلا قول من القول وبلا حال من الحال وكلامى بى أوبك أكون محجوبا بقولى .. »[2] .

ويصمت محمد خشية أن يكون بكلامه محجوبًا ، والصمت الذى يفرض على السالك ناتج عن صفة العجز الملازمة للبشرية فى الحضرة الإلهية ، فههنا يجد العارف نفسه بإزاء حقيقة لا متناهية أزلية ، وخالدة ، يعجز الكون بأسره عن تحمل ذرة واحدة منها فكيف يتأتى للعبد أن يتحملها .

وما من شك أن العارف الفانى يصبح عاجزا عن حمل هذه الحقيقة اللامتناهية يقول الشلبى « حقيقة المعرفة العجز عن المعرفة ، فالشىء الذى لا يبدو للعبد غير العجز فيه يجوز ألا يكون للعبد فى إدراكه بنفسه أكثر من الدعوى » ..[3] .

وصفة أخرى لحال الفناء المصحوب بالمعرفة هو كونه سلبًا خالصًا فى جميع نواحيه ، وهذه خاصية تمثل أحد جوانب الفناء أصلا فقد سبق وأوضحنا أن فى الفناء جانبين أحدهما سلبى يقال له موقف التخلية والآخر إيجابى يقال له موقف التحلية .. ومن هذين الجانبين الأساسين كان الفناء الأخلاقى والفناء المقترن بالمعرفة – والسلب الأخلاقى يكون

---

(١) الرسالة ، ص ١٥٥ .
(٢) كشف المحجوب ، الهجويرى جـ ٢ ، ص ٢٣٨ .
(٣) كشف المحجوب ، الهجويرى جـ ٢ ، ص ٥١٧ .

بقصد اكتساب صفات أخرى محمودة – أما السلب فيقصد به إفراغ المحل الذى سيتلقى العارف الوهبية .

ولن يتأتى هذا السالك إلا إذا خرج عن نفسه ، أو فارقها فلا معرفة لمن بقيت معه حجبه ، والنفس كما قلنا – أشد حجاب ، سئل الشبلى متى يكون العارف بمشهد من الحق ؟ قال « إذا بدا الشاهد وفنى الشواهد وذهب الحواس واضمحل الإحساس – وقال – من علامة المعرفة : أن يرى نفسه فى قبضة العزة ويجرى عليه تصاريف القدرة »[1] .

فإذا ما استسلم العبد بعد عناء المجاهدة لتصاريف خالق الكون ، ولم تعد له من إرادة ، ولم يعد له من حس يصل بينه وبين المحدثات ، وإذا ما قطع كل صلة بينه وبين إرادة الهوى ورفض كل استهواء ، حينئذ يكون العبد قد سلب عن نفسه كل آفاتها ، بل هو يصل إلى الحد الذى يسلب فيه نفسه عن نفسه ، وذاته عن ذاته ، فيبقى بلا هو وهذا هو مقام المعرفة المقدس الذى يقوم فيه الله عن أصفى عباده بكل حركاته وسكناته – يحدثنا الجنيد عن العارف فيقول « العارف عبد ذاهب عن نفسه أحرق قلبه نور هويته ، وصفا شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبته ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله فهو بالله ، ولله ، ومع الله »[2] .

يصبح العارف إذن عبدًا ربانيا يقول للشىء كن فيكون ، ويكون بالله عارفا ، فقد منح من الأسرار الإلهية والمعارف اللدنية ما من به على عبد من أصفياء عباده لقوله تعالى ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾[3] .

هذا – ولقد اتفق الشاذلى وابن عطاء على أن المعرفة قمة شاهقة ، والوصول إلى هذه القمة كما قدمنا درجات على سلم صاعد ، ولا ينتقل السالك من درجة إلى درجة إلا إذا استوفى شروط الدرجة السابقة ، وأول درجة هى الذكر المقترن بأشغال الجوارح كلها فى خدمته فلا يعود هناك من شاغل إلا ذكره جل شأنه .

وثانى هذه المراتب المحبة المقترنة بتعطش للمعرفة .

---

(١) اللمع ، ص ٥٧ .
(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١٤٣ .
(٣) سورة الكهف ، الآية ، ٦٤ .

وثالثها الفناء عن كل شيء بقيام الحق عن السالك فى كل شيء ، وأعلى هذه المراتب جميعًا مرتبة البقاء التى تقترن بظهور الله فى كل شيء شهوده فى كل شيء .

يقول الشاذلى « أول ما يقذفه الله فى قلب عبده الذى يريد أن يصطفيه محبته ، فلا يزال يلهج بذكره .. حتى يحبه الحق فإذا أحبه ، أفناه عن نفسه وغيبه عن حسه فكان سمعه وبصره وجملته ، ثم رده إليه وأبقاه به فعرفه فى كل شيء ورآه قائما بكل شيء ظاهرًا فى كل شيء [1] .

وتحصر هذه المقالة كل العناصر التى رأينا أنه لابد لنا من دراستها كى نظفر بالمعنى الكامل للفناء المعرفى وهى تتفق مع وجهة النظر التى سبق وقدمتها – إلى حد ما – ولنبدأ بدراسة علاقة الذكر بالفناء والمعرفة .

والواقع أن توحيد الغزالى لم يكن إلا كشفًا تتجلى فيه عظمة الأسرار الإلهية على هؤلاء الصوفية الذين فنوا ، ثم أفنوا بالله ثم ردوا بالبقاء إلى القرب منه فصار لهم الفناء مقامًا عرفانيًا يلزم فيه العارف ربه فى كل أحواله مهما تعاقبت ومهما اختلفت يقول « ذو النون المصرى » إن العارف لا يلزم حالة واحدة وإنما يلزم ربه فى الحالات كلها »[2] .

وخلاصة القول ، أن المعرفة فى جميع درجاتها وأشكالها فناء – والفناء كشف ، واتصال والاتصال صدق ، ويقين ، وأداة المعرفة هى القلب ، أو السريرة ، أو اللطيفة ، وموضوع المعرفة وغايتها « الله » الواحد الحق لا إله إلا هو .

**(ب) الذكر وعلاقته ، بالفناء :**

قد يتساءل الباحث – وما علاقة الذكر بالفناء ؟

والرد على هذا قائم فى أن القوم قد اعتبروا الذكر خيطًا ذا طرفين لو تمكن السالك من طرفه الأول لأمكنه أن يصل إلى الطرف الثانى فى نهاية الخيط .

وأما الطرف الأول فهو الغفلة عن النفس ، وأما الطرف الثانى أو الغائى فهو الفناء ، ذلك النوع من الفناء الذى يحول بين السالك وعودته إلى نفسه .

يقول جامى فى نفحات الأنس : « وأول مرحلة فى الذكر الغفلة عن النفس ، وآخرها

---

(١) ايقاظ الهمم ، ص ٢٩٧ .

(٢) طبقات الصوفية ، ص ٢٦ .

فناء الذاكر فى ذكره من غير أن يكون له شعور بذكره ، واستغراق الذاكر فى المذكور بحيث يمتنع عليه الرجوع إلى نفسه »[1] .

كانت هذه علاقة الذكر بالفناء فما علاقته بالمعرفة ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول : إن الذكر غيبة الذاكر بذكره ، والمعرفة لها موضوع واحد هو الحق ، ووصف الحق كما قدمنا لا يحتمل أى فكر ، ولا يتم هذا الوصف إلا بالذكر فالذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمده فى هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر »[2] .

وقال السلمى « الذكر أتم من الفكر ، لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر »[3] وبالذكر يخرج المريد من حال يكون فيها غافلا عن كل شىء إلى حال يكون قلبه فيها وعاء قابلا للمكاشفة ، والإشراق ، متلذذا بالفيوضات الربانية ، والأنوار القدسية ، وبهذا يكون الذكر بابا ينفذ منه المريد إلى حال فيها مقربا ، تشع عليه أنوار المعارف الربانية بعد أن كان مبعدا .

سئل الواسطى عن الذكر فقال « الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة »[4] .

ولقد قسم القوم الذكر إلى درجات صاعدة ولكنها كلها ضرورية للسالك من محاولة التكيف أو التطبع كى يصير ذلك طبعا فى النفس ، ومداومة الذكر تغرس فى القلب حب المذكور .

وذكر ثان هو المناجاة بالروح ، وهنا يتوقف اللسان ويفسح الطريق إلى جارحة أكثر شفافية وأشد التصاقا بالقلب – ونقصد بهذا الاتصال الذى يتم بين السرائر بطريقة روحية بحتة .

أريد عتابه فإذا التقينا ... تعاتبت الضمائر فى الصدور
سأصمت لا سأصمت ولا يلمنى ... لقد فهم الضمير عن الضمير[5]

---

(١) جاء فى التصوف الإسلامى وتاريخه ، نيكلسون ، ص ٧٩ .
(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١١٠ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١١١
(٤) الرسالة القشيرية ، ص ١١١
(٥) مشارق أنوار القلوب ، ابن الدباغ تحقيق هريتر ، ص ٨٣ .

وأعلى درجات الذكر ، هو غيبة الذاكر عن ذكره بمذكوره ، أى عندما يفنى الذاكر فى المذكور ويمتلئ القلب لا يذكر غير الله ، وهنا يصمت ذكر اللسان وذكر الروح ، أو السر ، ثم يصمت أخيرًا ذكر القلب ، ليفسح مجالاً للمشاهدة .

يقول الغزالى « إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع من غير ذكر الله وما سوى الله ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل »[1]

وهو مقام الواصلين الذى يشترط فيه عدم الذاكر ، لظهور المذكور وشهوده فى كل شىء .

وهكذا يدخل الطالب إلى حظيرة المطلوب فالذكر فى حد ذاته لا يمكن أن يكون غاية المؤمن ، ولكنه بدون شك أعظم وسيلة تربط بينه وبين خالقه ، وتفتح له طريق العلم الأشرف ، الذى لا يمكن الوصول إليه إلا ببذل المجهود .

ولا يتأتى للسالك شهود ، ولا تتم له معرفة إلا باستخدام لغة يخاطب بها ذا الجلال ومخاطبة ذى الجلال ليس حديثًا ذا طرفين يشترط وجود المخاطب والمخاطب ، فهذه مساواة بين العبد والرب وهذا معنى يخرج عن معنى الذكر القويم ، ذلك الذى يطهر قلب الذاكر ويجلوه ، بل ويصقل مرآة روحه بدرجة تجعل منه عبدًا حقيقيًّا ، عبدًا خالصًا لله وحده لا يشرك معه من شىء .

ولكن وجود الطرفين هنا يعنى تحقق السالك من كونه خلق ومعرفته أنه لا وصول إلا إذا عرف الحق . ومعرفة الحق ليست بمحض اختياره ، ولا هى فعل من أفعال الكون ، ولكنها اختيار عليه ، وهبة من هبات المولى ، وفعل من أفعال المكون ، استلزم قلوبا متأهبة بالذكر على الدوام يقول الجنيد : « إن الله تعالى يخلص إلى القلوب من بره حسب ما خلصت القلوب به إليه من ذكره »[2] .

فهو اصطفاء مشروط ، وليس جزافيا بل على قدر إخلاص السالك فى الذكر ، وعطائه وتطهره يكون إخلاص المولى واصطفائه وتقريبه – فإذا وصل الإخلاص قمته تم له

(١) إحياء علوم الدين ، جـ ١ ص ٣٠٤ .
(٢) طبقات الصوفية ، ص ١٥٧

الاصطفاء ، وهنا يكون فى مقام يشهد الحق فيه لا بمشاهدته له ، ولكن بمشاهدة الحق له .

وهكذا حظى الذكر بمكانة خاصة بين المقامات ، والأحوال ، فالذكر الدائم له أقوى الآثار فى القوى العقلية ، والفكرية ، حيث هو تطويع النفس ، وتصفية الذهن ، وإلزام الفكر بالتركيز والانحسار عن دائرة الخلق ، والانفتاح على الحق بعين البصيرة التى هى وسيلة المشاهدة الموصلة إلى اليقين الكامل بالله فى حال الفناء الذى يعقبه البقاء .

ولقد تحدث وليم جيمس عن هذا اليقين « Crititude»[1] الذى يمنحه الله للنفس التى فنيت فى الله دون غيرها فوصفه بأنه الوسيلة الوحيدة للرؤية التى تتاح عندما تعود الروح إلى نفسها – أى فى حال البقاء .

ولقد حظى الذكر بمكانة فريدة فى القرآن ، وفى الأحاديث ، المروية عن النبى (ﷺ) .

ففى القرآن دعوة صريحة للذكر – يقول جل شأنه ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾[2] .

﴿واذكر ربك كثيرًا﴾[3] ﴿فاذكرونى أذكركم﴾[4] .

وهذا إعلاء من شأن الذين لا يكفون عن ذكره فى كل حال ، فكما يذكر العبد ربه ، يذكره ربه فى الملأ الأعلى ويثنى عليه .

فإذا ما خلص لله على هذا النحو المشار إليه فى الآيات غاب الذاكر بمذكوره عن كل شىء فلم يعد يشاهد إلا هو ، ولا تقع العين إلا عليه .

وفى الحديث القدسى يقول عز وجل « إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإذا تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا وإذا مشى إلى هرولت إليه »[5] .

---

(١) The Varieties of Religious Experience; P 409.

(٢) سورة ، آل عمران ، الآية ، ١٩١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ، ٤١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ، ١٥٢ .

(٥) انظر تخريج العراقى لأحاديث إحياء علوم الدين بالهامش ، جـ ٣ ، ص ٨ ، « متفق عليه من حديث أبى هريرة » .

وهكذا يكون الجزاء من صنف العمل بل يفوق العمل سموا وكمالاً ، فذكر الله لعبده أشد ذكرًا وأسمى مقاما ، وذكر الله للعبد قيام الله عن السالك فى كل فعل ، وكل حركة ، حتى يصير له سمعا ، وبصرا ورجلا ، وهذه الحال هى منتهى الفناء وغايته وهى البقاء فى الله وبالله .

**(جـ) المحبة وعلاقتها بالفناء والمعرفة :**

لقد قال الصوفية إن الله يوصف بالذكر ، وليس بالفكر وقالوا أيضا : إن الذكر إلزام للفكر بالانحسار عن دائرة الخلق والانفتاح على الحق ، وهو أيضًا وعى عميق بعبودية السالك .

ونضيف أن الحب أو المحبة تأكيد لذكر دائم ، وحوار مستمر بين المحب والمحبوب وهو أو هى قطع – ووصل « أى فناء ومعرفة » وهى أيضا انقطاع لعبادة الخالق ، وقطيعة عن الخلق . ونحن قد نتبين أن من خواص هذه القطيعة الزهد فيما سوى الله ، واليأس من كل شيء عدا إصرار المحب على قطع الطريق إلى المحبوب ، وذلك لا يتأتى إلا بالفكاك من قيود البشرية والتجرد من العلائق الدنيوية وعلى هذا فمن الطبيعى أن تكون المحبة أول أودية الفناء ، باعتبارها تتيح نوعًا من الاتصال المباشر بين المحب والمحبوب ، ولحظة الاتصال هى اللحظة التى يتم للسالك فيها تحصيل المعارف اللدنية .

وإذن فالفناء معرفة ، ولكن الحب معرفة وفناء ، أو فناء ومعرفة ولقد اتفق الصوفية على ذلك ولكنهم اختلفوا فى ترتيب كل منهما من حيث أسبقية أحدهما على الآخر .

فهناك من قال بالمعرفة أولا – ومنهم من وجدها لاحقة على المحبة وتختلف وجهات نظر الباحثين فى هذه الناحية فالحسن البصرى يقول « من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها » ويقول الحلاج :

شرط المعارف محو الكل منك إذا  بدا المريـد بلحظ غير مطلـع[1]

فالفناء أو الحب عند الحسن البصرى لاحق على المعرفة بينما شرط حصول المعرفة فى البيت الذى أنشده الحلاج هو أن يتحقق السالك بمحو الكل أى الفناء بينما يرى د .محمد

(١) الإحياء ، جـ ٤ ، ص ٢٤٧ .

مصطفى حلمى أن المعرفة والمحبة عند ابن الفارض (تسيران فى خطين متوازيين)[١] . وأغلب الظن أن المعرفة سابقة على المحبة أو الفناء .

يقول المحاسبى « المحبة منّة إلهية أودع الله بذرتها فى قلوب محبيه وهذه المحبة طريق لكشف أسرار الوجود »[٢] .

وهكذا تكون محبة الله لعباده محبة اصطفاء بينما تكون محبة العبد لربه اجتهاد ويعنى هذا أن الله بذر بذور محبته فى كل قلب ، وهذه البذور تنمو فى قلوب عباده المحبين بدرجة غير عادية ، مما يمكنهم من الاطلاع على معارف وأسرار إلهية ليس لأحد دونهم أن يحظى بها .

يقول نيكلسون – ومقام العشق أقصى مقامات الزهد والغيبة عن الحس والاتصال بالعالم الروحانى فإذا وصل الإنسان إلى هذا الحد من الغيبة عن نفسه اطلع على أسرار الغيوب وأخبر بها معاينة لا على سبيل الحدس »[٣] .

ويقول ابن الدباغ « ولقد تبلغ المحبة بأربابها إلى أحوال تكشف لهم فيها عن أسرار الغيوب ولاسيما غيب المحبوب »[٤] .

ومن خواص هذا النوع من المعارف أيضا شعور أكيد بثنائية الحق والخلق ، وظهور إحساس قوى لدى المحب بأن ما يتأمله ويركز عليه هو الصفات الإلهية ، وليس الجوهر الإلهى ذاته ، فمما لا شك فيه أن جوهر الخالق يظل مجهولاً لأعظم النفوس شفافية ، وأن ما يمكن إدراكه بالفعل هو الصفات والقدرة .

يقول نيكلسون « إن العارف يتأمل الصفات الإلهية وليس الجوهر لأنه حتى فى هذا النوع من المعرفة يبقى هناك أثر ولو ضئيل للثنائية »[٥] .

ومن خصائص هذه الثنائية أنها محددة الاتجاه ما يتحدد معه مكان طرفيها فالمحب فى شوق صاعد إلى أعلى ، يقتفى أثر الجمال الكلى والأزلى ، والمحبوب لا يسعه إلا أن يهرول ليلتقى بحبيبه ، بمعنى أن النقص يبحث عن الكمال والسمو فى الذات اللامتناهية والمتعالية .

---

(١) د . محمد مصطفى حلمى ، ابن الفارض والحب الإلهى ، ص ٢٣٨ .
(٢) ابن الفارض والحب الإلهى ، ص ٢٤١ .
(٣) فى التصرف الإسلامي وتاريخه ، ص ٩٩ .
(٤) ابن الدباغ ، مشارق أنوار القلوب ، تحقيق هـ . ريتر ، ص ١٠٦ .
(٥) The Mystics of Islam; P. 79

ويظهر هذا واضحًا فى تعليق لنيكلسون على ترجمة البروفسور Browne لبعض أشعار جامى فيقول : « يترقى المحب صاعدًا إلى الجمال الأسمى – إلى حب المقدس ومعرفته »[1] .

ويورد نيكلسون تعليقًا آخر على أشعار جلال الدين الرومى فيقول « إن جميع أشكال الحب الرومانسى والقصص الصوفية الرمزية من أمثال ليلى والمجنون – يوسف وزليخة ، سلمان أبسال – الفراشة والشمعة – والبلبل والوردة هى ظلال لصورة العاطفة الروحية المتأججة شوقًا للاتحاد بالله »[2] .

ونضيف أننا نخالف نيكلسون الرأى فى هذه النقطة فليس من ضرورة الحب الاتحاد بالله ، وليست الصور الرمزية التى أوردها هى بالضرورة صور لاتحاد المحب بالمحبوب ، ولكنا نراها دليلاً قاطعًا على الثنائية القائمة فى الحب ، فلم يتحول المجنون أبدا إلى ليلى ، بل بقى حتى اليوم يعرف لنا باسمه ، ومهما قال عن نفسه إنه ليلى فلن يؤدى هذا إلى تحوله بالفعل إلى الصورة الأنثوية ، ولعل هذا المفهوم هو الأقرب إلى مفهوم الحب الإلهى ، فمهما كان المحب شغوفًا وصادقا فإن المحبوب يظل قائمًا بكيانه ، متعاليًا بصفاته ، ويظل المحب لاهثا صارخًا طالبا الوصول أو ليست هذه ثنائية .

ثم أن الفراشة تحوم حول ضوء الشمعة وقد تحترق بهذا الضوء ولكن ليس هذا دليلا كافيا على اندماج الفراشة فى الضوء بحيث يصبحان ذا خاصية واحدة ، فخواص الضوء باقية رغم احتراق الفراشة ، وكذلك خواص الكائن الحى تظل موجودة فى الجسد المحترق ، وهذه أيضًا معرفة قاطعة بثنائية لا تتحد مهما اكتسبت من خواص .

وقد تكتسب الفراشة بعد احتراقها بعضا من خواص النار ، ولكنها تصير رمادًا ، ولا تتحول إلى ضوء مطلقًا .

وقد قال الهجويرى إن الحديد الذى يدخل إلى النار قد يكتسب بعض خواصها (ولتكن السخونة مثلاً) ولكنه لا يتحول مطلقا إلى نار فالتغير الناشىء إذن تغير فى الصفات بينما يبقى كل جوهر قائم بذاته .

يقول د . محمد مصطفى حلمى : « إن الغاية القصوى عندهم (الصوفية) التحقق بمحبة الله ، ومعرفته ، ومشاهدة جماله ، وجلاله ، وكماله ، وآثار هذا كله فى العوالم

---

(١) The Mystics of Islam; P. 110

(٢) The Mystics of Islam; P. 116

المختلفة ومعنى هذا بعبارة أخرى أن السالك بعد أن يختلف على المقامات ، وتختلف عليه الأحوال ينتهى إلى كشف الحقيقة بحيث يصبح عارفا كما ينتهى إلى الشعور بحقيقة ذاته ، من حيث هى محبوبة »[1] .

وثالثا :فإن معرفة الحب الشفافة هى معرفة قلوب وهى انقشاع مباغت للحجب ، ونفاذ حاد للبصيرة ، وفى هذه الخاصية بالذات تعثر على أثمن ما يميز التصوف الإسلامى عامة والفناء العرفانى خاصة فلقد شاءت حكمة الخالق أن يعطينا الدليل على صدق ما أعلنه الصوفية عن مشاهداتهم ورؤاهم الفائقة للحس ويرد بذلك على كيد الخصوم .

فلقد وجدنا اتساقا يسود منهجهم ويربط بين أدواتهم فى المعرفة ولغاتهم لحظة الفناء ونوع معارفهم .

وإذا كنا قد قدمنا أن الصوفى الفانى يحصل لنفسه على حاسة روحية خاصة تمكنه من إدراك معارف مقدسة ، ليست قابلة للفهم من جانب أى عقل تصورى ، ولا تخضع لقوانين المنطق فإن هذه الحاسة تكتمل ويتضح شكلها عندما يعلنون أنه لا مجال للبصر فهو أداة لرؤية كل ما هو حسى وكثيف ، فليتوارى البصر وليفسح مجالا للبصيرة ، تلك التى لها القدرة على النفاذ من كل حجاب سواء كان حجاب الجسد أو حجاب النفس أو حجاب العالم .

**( د ) العلاقة بين الفناء وأداء المعرفة :**

لا يوجد أدنى شك الآن أن أداء المعرفة عند الصوفية – القلب – ولا يقصدون به القلب الحقيقى الذى هو من لحم ودم ، فهم يقصدون به شيئًا مخالفا وهو – اللطيفة الربانية ، وقد يطلقن على هذه اللطيفة أسماء متعددة ، كالبصيرة ، والسريرة .

يقول الحسين بن منصور الحلاج :

إذا سكن الحق السريرة ضوعفت ثلاثة أحوال لأهل البصائر
فحال يبيد السر عن كنه وجده ويحضره للوجد فى حال حائر
وحال به ذمت ذرى السر فأتت إلى منظر أفناه عن كل ناظر[2]

(١) ابن الفارض والحب الإلهى ، ص ٢٣٤ .
(٢) طبقات الصوفية ، ص ٣١١ .

وواضح أن الحلاج قد استخدم فى هذه الأبيات لفظ السريرة ، واشترط ترقيها إلى حال الفناء عن طريق إقامة الحق بها ، ودوام مراقبته ، حتى تفنى عن حقيقة وجدها وتحار فى معرفته ، فإذا ما ارتقت فى الأحوال فإنها تفنى عن كل شيء فى الوجود بمشهد الألوهية ، الذى يقطع على السريرة أو البصيرة كل رؤية ويمنع كل مشاهدة إلا مشاهدة الواحد الحق جل شأنه - وإذا علمنا مدى شفافية هذه الأداة لأدركنا أنها قد أعدت لتتناسب مع روحانية الخبرة ، ولطافة المشاهدة ، وقدسية المعرفة يقول ، أبو سعيد الخراز « وبادى بلا بادى يريد بذلك ما يبدو على قلوب أهل المعرفة من الأحوال والأنوار وصفاء الأذكار »[١] .

- ويقول الحلاج :

(رأيت ربى بعين قلبى)[٢]

ولم يقل رأيت ربى بعين رأسى وإلا لاختلف الأمر تمامًا ولكان الموضوع قد أصبح متعلقًا بما يمكن إبصاره بالعين المجردة . ولكن ما يتحدث عنه الحلاج هو شيء لا يشاهد إلا حال الفناء ، وهو الحال الذى يفسح المجال للطيفة القلبية كى تحظى بالمشاهدة - ولا يتأتى هذا بعين القلب إلا بالفراغ من كل ما يشغل قلوب أهل الدنيا .

يقول مشاذ الدينورى « فراغ القلب فى التخلى مما تمسك أهل الدنيا من فضول دنياهم »[٣] .

ويقول نيكلسون : « انظر إلى داخل قلبك فإن مملكة الله بداخله ، ومن عرف نفسه عرف ربه فالقلب هو المرآة التى تنعكس عليها كل حقيقة مقدسة »[٤] .

ويؤكد نيكلسون أن هناك طرقًا خاصة لحصول هذه المعرفة ، أو هذا الكشف وهى أما عن طريق « الإشراق Illumination أو الإلهام Revelation أو النفث فى الروع Inspiration[٥] وهو ما يثبت أن كل ما يختص بهذا النوع من المعارف روحى خالص سواء من حيث الأداة أو النوعية أو الوسيلة .

---

(١) اللمع ، ص ٤٣٩ .
(٢) نشأة التصوف الإسلامى ، ص ٢٥٨ .
(٣) طبقات الصوفية ، ٣١٧ .
(٤) The Mystics of Islam; P. 70
(٥) The Mystics of Islam; P. 70

فمما لا شك فيه أن الحواس وسائط تخطئ وتصيب ، أما المعرفة اليقينية التى تغمر القلوب فهى خارجة عن إمكانية وصفها بالصدق والكذب ، فهى ليست بالاستدلال ولكنها إشراق لا يتأتى لعين الرأس ، ولكنه خاص بعين القلب « فكل من ينيم بالمجاهدة عين الرأس عن الشهوة فإنه لا محالة يرى الحق بعين السر ، فمن كان أخلص مجاهدة كان أصدق مشاهدة »[1] .

ولكننا الآن وبعد أن تبينا عند دراسة علاقة المحبة بالمعرفة أن قلبا خاصا هو أداة المعرفة ، نعود فنتساءل ما هى الآفة التى تمنع العقل من ممارسة دوره فى هذا المجال – فأبسط أنواع التفكير يدلنا على أن العقل هو الوسيلة المعروفة والفعالة التى – لا يمكن أن تتم معرفة بدونه ؟

والرد على هذا أيضا يستلزم الإحاطة الشاملة بخصائص اللحظة العرفانية الفنائية أو لحظة الكشف والمشاهدة ؟

وقد سبق وقدمنا جل هذه الخصائص إلا أن ما يجب أن نؤكد عليه أن اللحظة سحق لكل البشرية ، ومحو لعالم الكون والفساد .

وإذا كان العقل من البشرية ومن عالم الكون أيضًا فلا مبرر أن يصمد فى مجال ليس من البشرية أو عالم الخلق فى شىء . كما وأن اللحظة فتح إلهى يخاطب البصائر وينأى عن الحواس ولا يتعلق بأى شىء يكون من شأن الحواس إدراكه يقول ابن عربى « فمن أراد الدخول على الله فليترك عقله ، ويقدم بين يديه شرعه فإن الله لا يقبل التقييد ، والعقل مقيد »[2] .

وهنا تكمن أبرز خصائص المعرفة فى حال الفناء ، فهى طوفان من الأسرار الربانية يحطم كل السدود التى تعترض طريقه ، ويفيض بهاء وعظمة ولا نهائية – وأما العقل فمتناهى ومحدود فأنى له أن يحظى بمعرفة اللامتناهى واللامحدود – والعقل ظلمة بمعنى أنه حاسة الإنسان المفكرة فى كل ما هو فى نطاق الحواس ، وأما – الله فنور له من القوة والبهاء ما يمحو كل الأنوار والعقل ممكن الوجود فيجوز عليه العدم ، والدثور ، والافتقار ،

(١) كشف المحجوب ، جـ ٢ ، ص ٥٧٦ .
(٢) الفتوحات المكية ، ابن عربى ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ، جـ ٣ ، ص ٥١٥ .

والله الذى هو موضوع المعرفة الكشفية واجب ، وهو خالد أزلى – لذلك فمهما اتسع نطاق العقل فإنه لا يرقى إلى مستوى اللحظة الكشفية – فهذه مشاهدة قلوب أو ارتقاء فوق مستوى العلم ، وهى معرفة خاصة الخاصة من أولياء الله المقربين ، الذين اصطفاهم ربهم فعرف لهم نفسه بنفسه .

يقول أبو يزيد « عرف الله بالله وعرفت مادون الله بنور الله »[1] .

وهذا الانسجام فى المنهج وهذه الدقة فى الصياغة لم تأت هكذا مصادفة ، ولم تأت كذلك نتيجة لمنهج منطقى عميق ، فمما لا شك فيه أن معرفتهم المستمدة مباشرة عن الله جل شأنه قد حملت فى ذاتها دليل صدقها ، وانسجامها وقد ضمن الله لأصفى عباده أن تكون وسائلهم محفوظة ، وطرقهم ممهدة ، وقلوبهم بالحق مسترشدة ومستنيرة ومحفوظة من الشطط والهيام .

يقول أبو يزيد البسطامى :

سقانى شربة أحيا فؤادى ... بكأس الحب من بحر الوداد
فلولا الله يحفظ عارفيه ... لهام العارفون بكل واد[2]

ويقول الحلاج :

سكنت قلبى وفيه منك أسرار ... فليهنك الدار بل فليهنك الجار
ما فيه غير من سر علمت به ... فانظر بعينك هل فى الدار ديار[3]

ومن هذه الأبيات السابقة نتبين أن القلب محل التجلى الإلهى ذلك القلب الذى يسلم القياد لله وحده وهو بذلك يبلغ كمال سعادته الأبدية ويظل قلب العارف مسترشدًا بالنور الخالص الذى يخرج من القلب إلى القلب ، فيكون حبلاً ممدودًا بين السماء والأرض بين العبد والرب ويكون هداية للمهتدين .

قال أحمد بن حضرويه « القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح »[4] .

---

(١) طبقات الصوفية ، السلمى ، ص ٧٢ .
(٢) شطحات الصوفية ، ص ١٦٧ .
(٣) نشأة التصوف الإسلامى ، ص ١٨٢ .
(٤) طبقات الصوفية ، ص ١٠٦ .

وقال أبو بكر الواسطى « حياة القلب بالله تعالى بل بقاء القلوب مع الله تعالى بل بالغيبة عن الله بالله »[1] .

ورابعا تتم هذه المعرفة باختيار إلهى بحت أو هو ما اصطلح عليه القوم بالاصطفاء والقرآن الكريم حافل بالآيات الدالة على حقيقة هذا النوع من الاصطفاء .

يقول تعالى ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾[2] .

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾[3] .

﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾[4] .

﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم﴾[5] وهو ارتباط واضح بين الاصطفاء والمجاهدة .

﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾[6] .

﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾[7] .

وهذا الاصطفاء هو الجائزة التى يفوز بها السالك والمحب الفانى الذى انقطع لحب الله وحده ، وأولئك الذين سيطر عليهم إحساسهم الخارق بعبوديتهم لله وحده حتى فى أشد اللحظات اقترابًا منه ، فجبلت قلوبهم على الطاعة ، التى لا يشوبها عصيان ، أو مخالفة أو تمرد ، أو نفاذ صبر .

وهكذا صار الفناء فى الحب الإلهى وسيلة مثالية لنيل أعلى درجات السمو والكمال – كما أصبح وسيلة لا تضارع فى تحصيل معارف روحية خالصة وظل حوارًا ومناجاة بين العبد والرب – حوار يشعر فيه العبد بعبوديته الدائمة لله .

وخلاصة القول أن الحب فناء ومعرفة ، فهو تحرر من ربقة البدن وانقشاع مباغت

---

(١) طبقات الصوفية ، ص ٣٠٥ .
(٢) سورة ص – الآية ٤٧ .
(٣) سورة فاطر – الآية ٣٢ .
(٤) سورة البقرة – الآية ٢٦٩ .
(٥) سورة الحج – الآية ٧٨ .
(٦) سورة الحج – الآية ٧٥ .
(٧) سورة النمل – الآية ٥٩ .

للحجب ، وذكر دائم غير منقطع وهو ولا شك وسيلة جيدة لقيام صلة لا نظير لها على الإطلاق ، وهى صلة العبد بربه ، تلك الصلة التى لا تتم إلا عن طريق القلب .

قال ذو النون المصرى « إن لله عبادا قدح فى قلوبهم زناد الشغف بمحبوبهم ، فأرواحهم لشدة الشوق إليه تسرح فى الملكوت ، وتنظر إلى ما ادخر لها فى خزائن الجبروت فأعينهم إلى جماله ناظرة وقلوبهم بمحبته عامرة وأرواحهم إلى لقائه طائرة فهم ملوك الدنيا والآخرة »[1] .

وواضح من كلام ذى النون نوع الصلة التى تربط بين المحب والمحبوب – فهى تبدأ بنوع من الشوق العارم الذى يملك على السالك كل نفسه ويقترن هذا الشوق بهيام الروح فى عالم الملكوت وهذا الهيام يكون مصحوبًا بالكشف عما ادخر لها فى خزائن الغيب ، وهذا الكشف لا يتم إلا لعيون محلها القلب ، أو هى عيون خاصة بتلك اللطيفة القلبية التى أعدت لتلقى الأسرار .

وهذا يكشف لنا عن الوضع الفريد الذى يحظى به المحب حال الفناء كما ينقلنا إلى مناقشة العلاقة بين الفناء ومنهج المعرفة .

**(هـ) العلاقة بين الفناء ومنهج المعرفة :**

المشاهدة كما قدمنا مقام ينكشف فيه سر الحق واضحًا فى كل مجلى من مجالى الخلق ، وهى المقام الذى جاءت قبله جميع المقامات والأحوال المقدمة ، وجاءت هى نتيجة لكل ما تقدمها .

ويحظى السالك بالمشاهدة بعد انجذاب روحى خارق ، يتجاوز فى روحانيته وسموه كل تفرقة ممكنة بين ذات وموضوع ، بين خلق وحق ، بحيث يمكن للصوفى أن يشاهد الحقيقة المطلقة شاملة لكل شىء .

وهذا الظلام قد غلط فيه الكثيرون من الصوفية – ونحن هنا لا نقصد إلى إبراز مواقف وجودية ولكن الذى أعنيه هو أن المشاهدة لا تتم إلا إذا تلاشى نور السالك فى النور الشامل (الخالق) ، فلا يبقى إلا نور يمحو كل نور ، والمحو هنا ليس بمعنى الامتزاج أو

(١) الحريفش . الروض الفائق ، القاهرة ، مكتبة الجمهورية ، بدون تاريخ ، ص ١٣٦ .

أن يصير النوران واحدا ، أو أن يصبح النور الأصغر نورا أكبر أو العكس ، فكل قائم بصفته ، وإنما فنى النور الأصغر فى النور الأكبر .

وهنا تبرز العلاقة بين حال الفناء والمشاهدة من ناحية والمشاهدة والمعرفة من ناحية أخرى – فالمعرفة غاية فنائية ، والمشاهدة غاية عرفانية ، وليس أوضح مما قاله الجنيد عن علاقة المشاهدة بالفناء فهى عنده « وجود الحق مع فقدانك »[1] أو هى كما قال النورى « لا تصح وقد بقى للعبد عرق قائم » [2] .

بل لعل المشاهدة فناء أشد من الفناء نفسه أو إن شئنا قلنا إن الصوفية قد اهتدوا إلى حقيقة كون مرحلة الفناء ذاتها تنقسم إلى درجات متدرجة ، شأنها شأن الأحوال والمقامات الارتقائية ، تبدأ من أدنى الدرجات وهى درجة الفناء والانسلاخ عن كل ماديات ذلك العالم الحسى ، إلى أعلى الدرجات فى حال المشاهدة الذى يحظى فيه السالك بنوع من الفناء المصاحب للرؤية ، والإشراق ، والوجد ، والتجلى ، ومنتهى هذا الحال موات البشرية ، وإخماد الحواس بحيث يتخلص السالك من كل شىء يربط بينه وبين بشريته إلى أن تشف روحه ، ولا يبقى بها آثار للظلمة ، فتصبح نورانيه ثم يغرق النور فى النور ولا يعود هناك سوى نور الأنوار « فالمشاهد كأس تصطلمهم عنهم وتفنيهم منهم ولا تبقيهم ، كأس لا تبقى ولا تذر تمحوهم بالكلية ولا تبقى شظية من آثار البشرية »[3] .

وقال قائلهم « ساروا فلم يبق لا رسم ولا أثر »[4] وكلمة ساروا هنا توضح ما تعنيه بتقسيم الفناء إلى مراحل ودرجات فالسائر هنا – من وجوده إلى محوه ، وعدمه ، ومن محو ، إلى إثبات بالحق ، ثم إلى محو عن الإثبات ، ثم إلى محق لا يبقى أثرا من البشرية ، فإذا تم للسالك هذا كان عليه أن يبدأ مراحل عرفانه بالمحاضرة ، ثم المكاشفة ، ثم المشاهدة ، وهى أعلى درجات العرفان ، وهى فيض من نور الحق نفسه يغمر القلوب المتأهبة ويحمل مع إشعاعاته رؤية الغيب ، وهى رؤية نافذة تملأ على السالك كل كيانه وتهز كل ذرة منه بحيث لا يعود مشاهدًا إلا الواحد الحق الذى تتلاشى إلى جانب عظمته

(١) الرسالة القشيرية ، ص ٤٣ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٤٣ .
(٣) الرسالة القشيرية ، ص ٤٣ .
(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٤٣ .

كل الموجودات يقول المكى « فمن شاهد الله بقلبه خنس عن ما دونه وتلاشى كل شيء وغاب عند وجود عظمة الله تعالى ، ولم يصدق فى القلب إلا الله عز وجل »[1] .

والمشاهدة نفسها حظيت بنصيب كبير من اهتمام القوم – فقد قسموها هى الأخرى درجات صامدة – فمنها مشاهدة الأصاغر وهى أدنى الدرجات وفيها يقوم الفكر بدوره إلى جانب الملكات الأخرى ، وأما مشاهدة الأواسط فهى فيما بين الله والعبد ، وهى التى تقترن باستيلاء الحق على كل سر السالك فلا يبقى فى وهمه غير الله .

وأعلى الدرجات هى مشاهدة العارفين الذين شاهدوا الله فى كل شيء وشاهدوا كل شيء به – يقول عمر بن عثمان المكى عن الحال الثالث « إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت فشاهدوه بكل شيء وشاهدوا كل الكائنات به فكانت مشاهدتهم لديه ولهم به فكانوا غائبين حاضرين ، وحاضرين غائبين على انفراد الحق فى الغيبة والحضور فشاهدوه ظاهرًا وباطنًا وظاهرًا وآخرًا أولاً وأولا وآخرًا »[2] .

وهذا الترقى يعقب الفناء والبقاء ، أو يلازمهما فإذا كان الفناء شهود للحق بغير حاجة إلى الخلق ، وإذا كان البقاء هو شهود كل شيء بالحق فإن هذا لا يتم إلا إذا استولى الحق على قلوب من أحب من عباده فلا يبقى متسع إلا لشهود ربوبيته ، فى كل مظهر من مظاهر خليقته ، وهو صعود من شهود العالم الحسى إلى شهود العالم الروحى « فمن عرف الحق شهده فى كل شيء ولم ير معه شيئا لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح ومن شهود عالم الملك إلى شهود قضاء الملكوت »[3] وهذا مقام يتوارى فيه العقل ، وتسقط فيه كل مجالات الفكر ، ولا يبقى للسالك فى مشاهدته من نصيب ، حيث يقوم الحق عنه بذلك ، فيصير غائبًا عند الحضور ، حاضرًا عند الغيبة ، ولا مشاهدة له إلا الحق فى الغيبة والحضور ، فيشاهده فى تجليه وستره ، فى قدمه وحدثه فى تناهيه وإطلاقه ، وفى أزله وأبديته .

وهذا مقام ، اليقين ، الذى يبدأ بقطع كل الأسباب التى تحول بين السالك وبين الله وينتهى إلى حال من التثبت ، والرسوخ وعدم الشك وفيه تكاشف القلوب دون ما حاجة

---

(١) اللمع ، ص ١٠٠ .
(٢) اللمع ، ص ١٠١ .
(٣) إيقاظ الهمم ، ص ٢٩٦ .

إلى تعليل أو برهان – بحقائق ربانية لا يأتيها الباطل ولا تداخلها الحيرة أو الريبة – سئل أبو الحسين النورى عن اليقين فقال « اليقين المشاهدة »[1] ولكن مشاهدة من نوع خاص فهى معرفة بلا كيف ولا حدود وهى معرفة أكيدة وثابتة فيها ثقة بالله وإثبات للمعانى الروحانية أو هى كما قال عمرو بن عثمان المكى « تحقيق الإثبات لله عز وجل بكل صفاته »[2] .

وهى معرفة أهل الطريق ، وهى كشف محقق ، لا يصل إليه صاحبه إلا عن عمل وتقوى وسلوك ، وهو العلم الموهوب الذى لا يمكن أن يتطرق إليه شبهة ، وهى معرفة الخاصة ، حيث تبتعد عن الاستدلال وتند عن الوسائل يقول الهروى « والدرجة الثالثة معرفة مستغرقة فى محض التعريف لا يوصل إليها استدلال ولا يدل عليها شاهد ولا تستحقها وسيلة »[3] وعلى هذا فاليقين أعلى درجات المشاهدة ، والمشاهدة أعلى درجات المعرفة ، فمن عرف الحق شهده ، ومن شهده أيقن به وحده .

ويقول الحلاج « إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة – أى إذا تنقى عن آفاته وانسلخ عن صفاته وفنى عن ذاته – أوحى الله تعالى إليه بخواطره وحرس سره – يعنى تكفل به أن يسنح فيه غير خاطر الحق »[4] .

وهكذا يتضح لنا أن منهج المعرضة الصوفية فى أدنى درجاته فناء ، وفى أوسطها كشف وشهود ، وقمتها اليقين ، الذى لا يدانيه فى صدقه ووضوحه من شىء على الإطلاق ومجموع الكشف ، والشهود ، واليقين ، يكون لحظة الفناء التى تتحقق فيها مشاهدة القلوب التى تتم اتصالا .

واليقين هو النور الذى إذا ما دخل القلب تمت له الرؤية والمكاشفة بحقائق الإيمان – قال أبو عبد الله الأنطاكى « إن أقل اليقين يملأ القلب نورًا وينفى عنه كل ريب »[5] وقال أبو عبد الله بن خفيف « اليقين تحقق الأسرار بأحكام المغيبات »[6] وهناك فروق

---

(١) اللمع ، ص ١٠٣ .
(٢) اللمع ، ص ١٠٣ .
(٣) منازل السائرين بنهاية مدارج السالكين ، جـ ٣ ، ص ١٢ .
(٤) طبقات الصوفية ، ص ٣٠٨ .
(٥) الرسالة القشيرية ، ص ٩٠ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

مميزة تفصل بين المكاشفة بالإبصار ، والمكاشفة بالقلوب أو البصائر ، وهى فروق تستمد أصالتها من حال الفناء نفسه ، فإذا أدركنا أن الأبصار أحد حواسنا أدركنا فى الوقت نفسه أن الحواس لا تعمل حال الفناء ، فليس هذا مجالها كما قدمنا ، فالحواس دلائل عمياء وليس الأعمى بقادر على أن يقود إلى النور ، والخطأ هو صفة أصيلة من صفات كل معرفة آتية عن طريق الحواس ، ولنضرب لذلك مثلا فنقول إن الطبيب يلجأ إلى قياس درجة حرارة المريض باستخدام الترمومتر وهو قادر على أن يتحسسها بيده فيدرك ارتفاع درجة الحرارة مباشرة إلا أن الحواس خادعة لا تؤدى إلى معرفة دقيقة ، ولذلك لجأ العلماء إلى وسائل أكثر دقة من صانعها ، وتقوم بعمل الحواس كلها وبطريقة رائعة إلا أن هذه الدقة وهذه الروعة لا يمكن أن تبلغ أدنى درجات (اليقين) — من حيث الصدق والمباشرة والوضوح — وهو ما يستمده السالك عن طريق اللطيفة القبلية التى هى وعاء استقبال مكنون أسرار الخالق والتى هى محل اليقين وأداته ومن هنا كانت ضرورة أن يفنى السالك عن كل حواسه حتى يتم له الكشف اتصالا — قال النورى « مكاشفات العيون بالإبصار ومكاشفات القلوب بالاتصال »[1] ولا يحدث اليقين إلا بالاتصال كما لا يحدث الاتصال إلا بالفناء .

فمن فنى عن حظوظه سطعت على قلبه أنوار الصفات وكوشفت بأسرار الذات فالأنوار لأهل الفناء فى الصفات والأسرار لأهل الفناء فى الذات »[2] فلحظة التجرد عن الصفات هى لحظة إشراق الأنوار الإلهية على قلوب عباده ، كما أن لحظة الاتصال الفنائية تكون زاخرة بفيض من الأسرار الإلهية التى يكاشف بها السالك ، ومن الطبيعى أن يكون صدق هذه المعارف ووضوحها فى أعلى درجات اليقين .

ويبدو الآن واضحا العلاقة الوثيقة التى تربط حال الفناء بالمشاهدة واليقين فإن قلنا : إن اليقين مشاهدة فإن قولنا لا يكتمل إلا بالتأكيد على أن اليقين فناء ، بل وفناء عن الفناء يقول أبو يعقوب « لا يستحق العبد اليقين حتى يقطع كل سبب حال بينه وبين الله تعالى من العرش إلى الثرى حتى يكون الله لا غير »[3] .

وهذا هو طريق الأنس بالله ، بعد رحلة المجاهدة الشاقة فى الطريق إلى الفناء الذى

---

(١) اللمع ، ص ٤٢٢ .
(٢) ايقاظ الهمم ، ص ١١١ .
(٣) اللمع ، ص ١٠٣ .

يتوج بالمشاهدة ، التى لا تتأتى للسالك إلا بعد أن تسقط النفس كل سبب يربط بينها وبين العالم ، وفى نفس الوقت تتمسك بكل سبب يربط بينها وبين الله – وهى على هذا النحو : معرفة الحقيقة المطلقة ، وهى أيضا صادقة بالضرورة وهى إلى جانب هذا وذلك – وعى بالوعى أو وعى بالبقاء بعد الفناء – يقول "J. Hick" يظل العارف واعيًا بأنه يواجه حقائق معرفية صادقة وهو أيضًا يكون فى حالة وعى كامل بما يعى – وهو الوعى بالوعى ، أو المعرفة بالمعرفة[1] . ويتعلق الكشف الصوفى بكل ما هو روحى وبقدر تعلقه بالروحانيات بقدر انفصاله عن الماديات ، وهذه الخصائص جعلت من الكشف الصوفى ، شيئا مختلفا تمامًا عن الحدس العادى وعن موضوعات البصيرة العادية وإن كان هذا لا ينفى أن الحدس والبصيرة مصدرين من مصادر المعرفة باعتبارهما صادقين ومفاجئين ولكنهما مع هذا يتصلان إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بموضوعات العالم الحسى – ولقد سبق وأوضحنا أن الحواس لا تقوى حيال المعرفة السامية .

هذا – ولابد أن يكون واضحًا أنه وإن كان الكشف الصوفى هو مما لا يقوم عليه شاهد أو يستطيع أن يبرهن على وجوده تجريبيا أحد – باعتباره من قبيل الروحانيات التى لا تخضع للتجربة مما يوحى بإمكانية عدم صدقه إلا أن هذا ليس صحيحًا تمامًا ، فقد أمكن الاستدلال على أن ما يحصله الإنسان خلال هذه اللحظات الكشفية هو مما يفوق فى صدقه أى أنواع الصدق بل وأشدها وضوحًا ، يقول رسل « إن معظم ما هو أكثر الأشياء صدقًا – وهذه حقيقة – قد أوحته إلينا هذه البصيرة[2] Insight والواقع أنه ليس من الغريب أن نصادف نحن العاديين من البشر فى حياتنا اليومية مواقف تقطع بصدق هذه البصيرة ، ونفاذ هذا الكشف الخارق فقد يكاشف الإنسان فجأة ودون توقع أنه سيلقى بشخص لم يشاهد منذ عشرات السنين وربما كان قد انتقل إلى بقعة نائية من بقاع الأرض ، ثم لا تمر لحظة إلا ويجد هذا الصديق أمامه بلحمه ودمه .

وكثيرون منا توقعوا أنباء سارة أو سيئة جدا لأناس تفصلنا عنهم مئات بل وألوف الأميال ثم جاء البريد يحمل معه صدق ما توقعوا .

---

(١) J. Hick; Faith and knowledge; Conell unversity' 1957. p. 5.

(٢) نظرة إلى الكشف الصوفى ، د . أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، مجلة الفكر المعاصر العدد ٣٤ لسنة ١٩٦٧ ص ٣٦ .

وإذا كانت مثل هذه الأمور تصدق معنا نحن العاديين من البشر ، فكيف نضن بها على الصوفية الذين وصلوا أعلى درجات النقاء والشفافية ؟

ولقد أورد لنا الغزالى أمثلة بالغة الدقة تقطع بقيام ملكة أخرى غير عادية عن الصوفى فى مشاهداته – وربما كان هذا هو ما سمى إلهاما أو نفثا فى الروح – فقد انكشف لعمر بن الخطاب أن العدو أشرف على سارية وأنه لابد لسارية أن يتحصن بالجبل ، حتى لا ينال منه العدو فصاح من على منبره – أن يا سارية الجبل[1] وقد بلغ سارية صوت عمر بالفعل ، فتحصن بالجبل فعمر مع بعده شاهد ما يحدث لسارية وسارية مع انشغاله فى المعركة سمع صوت عمر – أو ليس هذا دليلا على أن الكشف شىء بالغ الصدق وأنه يضرب بعنف عنصرى الزمان والمكان ؟

ويتكلم سيتس عن الكشف – أو ما أطلق عليه اسم الحدس الدينى – فيرى فيه تدخلاً للنظام الطبيعى أو هو أثر تحدثه اللحظة الأزلية (الإلهية) على التاريخ (الإنسان) ولحظات الزمان[2] .

هذا ولقد تعددت الأسماء للطريقة التى تتم بها المعرفة حال الفناء ، فمن الصوفية من أطلق عليها اسم الكشف ، أو الإلهام ، ومنهم من أطلق عليها اسم البصيرة ، أو الخاطر الإلهى أو هى الضربة ، أو اللحظة الخاطفة . ولعله ليس من قبيل المصادفات أن تكون كلمة (Yoga) هى الترجمة الحقيقية لاصطلاح البصيرة الصوفية Mystical Insight والداهيانا Dhyana هو الاصطلاح الذى يطلقه البوذيون على حالات عليا من التأمل[3] ومما يقطع بوجود تشابه كبير بين هذه الحالات وبين الكشف الصوفى لدى المسلمين أنها جميعًا لا تعول على الحواس بل هى ترى فيها وسائل معطلة للوصول إلى حالات من السمو الروحى .

كما أن النفس لا تحظى بمثل هذه الحالات العليا إلا بعد أن تتخلص من أثقالها ، وتفنى عن جميع ما يتعلق بموضوعات العالم المادى ومدركات الحواس .

وقد تحدث القديس فرنسيس Francisعن تلك اللحظة الروحية التى يسقط فيها الحجاب

---

(١) الإحياء ، جـ ٣ ، ص ٢٣ .

(٢) الزمان والأزل ، سيتس ، ترجمة د . زكريا إبراهيم ، ص ٢٣٥ .

(٣) The Varieties of R. Experience; London. 1904. p. 19.

فجأة لتظهر أمام عين بصيرته حقائق لم يسبق له أن ظفر بمثلها بل لم تخطر بباله فى يوم من الأيام وتأتيه هذه الحقائق فى شكل حدس وجدانى[١] .

كما أننا نعثر في الأوبانيشاد[٢] على نصوص تتحدث عن ذوبات الروح أو تلاشيها وامتزاجها بالأزليفى لحظة التنوير المقدس .

ولحظة التنوير المقدس هذه هى اللحظة التى تذوب عندها الهوية الفردية وتكاشف فيها الذات بأسرار الكون وهى شبيهة بلحظة الفناء الكشفية تماما – وقد وجدت لها صدى عند كل من أفلوطين ورويسبروك ، وأكهارت وسوسو .

وقد ورد مصطلح « الفناء » بمعانى متعددة تتألف جميعًا لكى تعطى وصفا دقيقًا للحالة التى تسبق الكشف الصوفى ، أو الاتصال سواء فى التصوف الإسلامى ، أو المسيحى ، وهذه المصطلحات قد وردت عند كل من وليم جيمى ، ووالتر سيتس ، ونيكلسون ، وغيرهم وهى :

التلاشى ading away والذوبان Melting، أو الذهاب Passing away أو فقدان الهوية أو الذاتية Loss of Personal Inentity[٣] .

وكذلك فقدان الذات Loos of Individuality أو ذوبان الذات The Dissolution of Individuality[٤] وبدون أن يمر السالك بهذه الحالة التى هى الفناء "Fana"لا يمكن للبصيرة أن تحظى بمشاهداتها الإلهية فى حال البقاء .

هذا ولقد ارتبطت كافة المصطلحات السابقة على النحو المشار إليه بمعنى الفناء ، المرتبط بالبقاء ، كما يفهم من المصطلحين فى التصوف الإسلامى يقول ستيس « هناك علاقة ارتباطات متبادلة بين الفناء والبقاء Correlative For fana is BAQ[٥] ومهما تعددت الأسماء التى تطلق على لحظة الكشف الصوفى فى التصوف الإسلامى فإنها لا تعدو أن تكون أوصافًا للحظة التى يتم فيها للعارف الخروج عن حجبه بمحض اصطفاء الحق

---

(١) Myticism and Philsophy; p. 278.

(٢) The Varieties of religious Experience; p. 419.

(٣) Myticism and Philsophy; p. 119.

(٤) Myticism and Philsophy; p. 113 & 117.

(٥) Myticism and Philsophy; p. 115. SEE R. A. Nicholson, Studies in islamic Mysticism. London; 1914; p.80.

له ، بعد أن فنى ، عن كل ما يسد عليه الطريق الذى يبدأ بتقديم المجاهدة ، ومحو البشرية ، وقطع العلائق ، كلها ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل بتنويره بأنوار العلم ، يقول الغزالى « وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجهه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية »[1] .

وفى لحظة الكشف هذه يتلقى العارف عن طريق المشادة القلبية خواطر أو سفراء الحق ، وأهم صفة تميز هذه الخواطر أنها سريعة الزوال وهى لا تدخل إلى قلب العبد إلا إذا كان دائم الانتباه وفى حال فناء دائم ، وتكون الاعتقادات التى يصل إليها الصوفية – فيما يقول أستاذنا د . أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ثمرة من التأمل فيما حصلوا عليه فى لحظة البصيرة ، وأول وأعظم النتائج للحظة الإشراق الصوفى – هى الاعتقاد فى وجود ذلك الطريق للمعرفة والذى يمكن أن يسمى إلهاما أو بصيرة[2] .

ومن الأمانة أن نضيف هنا أنه وإن وجد نوع من التشابه بين عناصر الكشف الصوفى والكشف فى الديانات الأخرى ، فإن هذا ليس له علاقة بعملية التأثير الحضارى المتبادل ، فهذه الخبرة هى مما يتصل بوجدان البشر من كل جنس وهو ما يؤدى إلى وجود مثل هذا التشابه ، إلا أن « الكشف » يختلف موضوعًا ، ومنهجًا ، وهدفًا ، تبعا لما يدين به هذا الجنس من البشر ، أو ذاك .

ونخلص إلى القول أن لحظة الكشف فى التصوف الإسلامى تنفرد بخصائص فريدة تجعل منها لحظة من أسمى اللحظات التى لا يمكن أن تخطر بعقل البشر على الإطلاق إلا من اصطفاه الله – فهى هبة من الله عز وجل لا تتأتى إلا للأبرار الذين ذاقوا حلاوة المجاهدة ، وخلصوا أنفسهم من شهواتها ، وحرروها من قيودها ، فصارت من فناء إلى فناء ، ومن مقام إلى مقام أعلى منه ، حتى استقر لها الكشف مقاما ومنهجا ، ففاضت الأنوار البارقة على النفوس المتأهبة حاملة معها أسمى المعارف وأجلها وأكثرها نقاء وشفافية .

والواقع أن العبد الفانى يظل فى معركة دائمة حتى يدخل إلى عتب الفناء ، وبدخوله إلى هذا المجال تزداد المعركة لهيبا ، فلن يتم للسالك شهود طالما كان أسير شهوده الخاص ،

---

(١) الإحياء ، جـ ٣ ، ص ١٨ .

(٢) د . أبو الوفا التفتازانى ، نظرة إلى الكشف الصوفى ، ص ٣٦ .

فلا يزال العبد عاملاً على التخلص من قيود وجوده ، وشهود وجوده ، حتى يتحقق بالوجود الكلى ويحظى بشهود الواحد القهار الذى يمتنع إلى جواره شهوده أى شهود .

ولقد فطن الصوفية إلى أن وجود البشرية وجود مكين ، وأن هدم هذا الوجود أشبه ما يكون بهدم حصن حصين ، أو قلعة تمتنع على كل وسائل الدمار ، بل قد ينجح السالك فى أن يهدم الكون بأسره ويعزله عن ذاته ويعزل ذاته عنه ، ولكنه لا ينجح فى هدم وجوده هو فإن تمكن من هدم وجوده يكون قد ضرب فى مرة واحدة وجوده ووجود الكون ولا يمكن أن يدث العكس فإن تم ذلك للذات أشرقت الأنوار على القلوب ، وتهيأت البصائر لتلقى الأسرار بعد أن تحررت من رقة الآثار وسجن الأغيار « أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك »[1] .

ويقول الجنيد « وجودى أن أغيب عن الوجود بما يبدو على من الشهود »[2] وبعد هذا نتساءل عن موضوع المعرفة الصوفية وغايتها وعلاقة هذا بالفناء . وهو موضوع الصفحات التالية .

**( و ) العلاقة بين الفناء وموضوع المعرفة :**

الله هو موضوع المعرفة والفناء فيه توحيده وإفراده والتوحيد الغيبة عن الوجود ، وهى هنا شاملة أو هى غيبة لا تبقى ولا تذر قال أبو زيد : « أدنى ما يجب على العارف أنه يهب له ما قد ملكه »[3] ويقول أيضا : « من عرف الله فإنه يزهد فى كل شيء يشغله عنه »[4] فلا يعود العبد مشاهدا إلا الواحد الحق وهو المقام الذى إذا ما بلغه العارف لا يبقى له شيء فى ذاته ، وهو مقام الفناء الذى هو المحو الكامل والخلاص التام ، وهو الإثبات لوحدانية الله – وقد سئل المكى رحمه الله عن اليقين فقال « تحقيق الإثبات لله عز وجل بكل صفاته »[5] .

ويقتضى هذا أن يعى السالك قوله عز وجل : ﴿قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد

(١) حكم ابن عطاء الله السكندرى : ايقاظ الهمم ص ١١١ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١١١ .
(٣) طبقات الصوفية ، ص ٧٠ .
(٤) طبقات الصوفية ، ص ٧٤ .
(٥) اللمع ، ١٠٣ .

ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾[1] وهو مقام التوحيد المطلق – والتوحيد غاية المعرفة وآخر مقاماتها فلا يصح للسالك عرفان ولا تتم مشاهدة إلا بالتوحيد .

وإذا كان التوحيد نتيجة حتمية للفناء فإن الفناء صفة أصيلة للعارف وفناء العارف على الحقيقة تنزيه وتجريد يستوفى أكمل أشكاله بتوحيد الله .

ومن هنا يجب الاعتراف بأن خاصة عباد الله قد وجدوا فى الفناء طريقًا معبدًا ووحيدًا يقود إلى التوحيد الخالص الذى لا يستقر للعارف بدونه مقام .

ولقد اتخذ التوحيد[2] عند أصفياء القوم معانى محددة تجعل منه فناء خالصًا فى حقيقة الأمر – ولن نجانب الصواب إن أطلقنا اصطلاح (الفناء) على (التوحيد) أو اصطلاح (التوحيد) على (الفناء) – فقد كان مشايخ القوم ينظرون إلى العبد الذى أغرق فى بحار التوحيد على أنه قد فقد أو أفقد كل قدره له على أن يصرف أمور نفسه – بل هو يفقد بصفة مطلقة كل إرادة له ، فلا تبقى له قدرة ولا له تدبير ، بل هو يصل إلى أبعد من ذلك فى فنائه فيصير شبحًا لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرا ، أو يصير كالميت الذى يفعل به غاسله ما يشاء فقد أسلم زمام نفسه للمولى عز وجل ، فتولى عنه تصريف أموره ، وقام له فى كل مقام ، وتصرف عنه فى كل حركة أو فعل بعد أن اصطفاه ، قربه ، وطهره ، من براثن الجسد المخلوق وأعاده إلى نقاء الروح الأزلية ، فعاد كما كان قبل أن يكون وتحطمت أمام عينيه قيود الزمان والمكان ، فاليوم تقوم عنه البصيرة ويولى البصر أدباره وهذا لا يتم إلا بالفناء عن كل ما يخص البشرية والبقاء بكل ما يخص الإلهية « سئل أبو يزيد – بماذا نالوا المعرفة – قال بتضييع ما لهم والوقوف على ماله »[3] .

ويتفق الغزالى مع الجنيد فى اعتبار التوحيد ثمرة من ثمار المعرفة ونتيجة من نتائجها ، بل لعله يعود إلى المعنى الذى سبق أن قال به الجنيد حين اعتبر العارف شبحًا بين يدى الله عز وجل بل قد يصل إلى أبعد من ذلك حيث يستخدم ألفاظًا متشددة فالواصل – عنده – قد وصل إلى المكاشفة بعد أن فارق كل كله فلم يبق معه شىء منه – لفظت بشريته أنفاسها الأخيرة قبل الدخول إلى عالم التوحيد فلم يبق له صفة ولم يبق معه

(١) سورة الإخلاص : الآية ١ – ٤ .
(٢) راجع اللمع ، ص ٤٩ .
(٣) طبقات الصوفية ، ص ٧١ .

إلا القديم – والصفات محدثة ولا مجال للمحدث فى حضور القديم ، وههنا تفيض على السالك أسرار زاخرة تنم عن حقائق فريدة لا يصح أن يفشى سرها إنسان ، فهى من عالم الحق ، وهى وصول إلى الله .

يقول الغزالى.: « إن الواصل إلى المكاشفة قد خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأصول والأعمال واتحد بصفات التوحيد ، وتحقق بمحض الإخلاص فلم يبق فيه منه شيء أصلاً بل خمدت بشريته وفنى التفاته إلى صفات البشرية بالكلية وليس المقصود فناء جسده وإنما فناء قلبه ، وليس المقصود بالقلب ذلك الدم واللحم وإنما السر اللطيف – وهذا الفناء مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد وقال أنا الحق »[1] .

(١) احياء علوم الدين . جـ ٢ ، ص ٢٥٦ وأورده الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى فى كتابه المدخل إلى التصوف الإسلامى ، ص ٢١٤ .



obeikandl.com